الحسناء

الجزء التاسع المجلد الثاني

بيروت شهر اذار سنة ١٩١١

مسز بيشوب

ايزابلا برد

لا شيء يدفع المرأة في سبيل الرقي ويبعثها عَلَى حياة الفضل والعظمة مثل الاطلاع عَلَى تراجم فاضلات النساء فانها تسمع من خلال تلك السطور هاتفاً يقول لها بمثل هؤلاء تفتخر البلدان وترتقي الاوطان · وما تسنى لهذه كيف لا يتسنى لك مع انك شريكتها في اللحم والدم مساوية لها في القوى العاقلة والعواطف الانثوية · بل انت تفضلينها في الظروف وروح العصر الذي يسهل لك سبيل الارتقاء وقد كان يحول دون ترقيها ويعمل عَلَى الحط من شأنها · حينئذٍ تنزع نفسها الى تحدّي مثال من تقرأ في ترجمتها والنسج عَلَى منوالها

لذلك اقدمت عَلَى ترجمة هذه الشهيرة وقدمتها لصاحب الحسناء اشعاراً بفضله وفضل الغاية التي وقف نفسه عَلَى السعي اليها راجياً له كل نجاح · وعسى ان لا يكون عهد تكاثر الفاضلات في بلادنا بعيداً فترتقي بارتقائهن البلاد

ايزابلا برد — مسز بيشوب

هي الرحالة الشهيرة التي ذاع صيتها في اوروبا بين الخاص والعام صاحبة التآليف الجمة التي تداولتها ايدي القوم فاقبلوا عَلَى قراءتها اسى اقبال · هي مثال الوداعة

والرقة والرغبة في اكتشاف المجهول من البلدان والصبر والجلد والمثابرة على العمل بجدٍ ونشاط على ما بها من نحافة البنية ورقة البدن . هي مثال انكار الذات في سبيل خدمة العلم . هي ايزابلا برد التي صارت فيما بعد مسز بيشوب .

ولدت هذه الفاضلة سنة ١٨٣١ في قرية من اعمال لنكشير ببلاد الانكليز وكان والدها قسيساً اما هي فكانت نحيفة البدن ضعيفة البنية . ولما كانت في احتياج شديد الى الاقامة في الهواء المطلق كانت تصحب والدها حين جولانه لتفقد احوال رعيته . ولما ترعرعت اقتنت جواداً وكانت تركبه في تلك الاسفار وكان والدها يغتنم تلك الفرصة لتوجيه ذهنها الى كل مايقع تحت نظرها ويسألها اسئلة مختلفة بغية ان يثير فيها قوة الملاحظة وقد اثر فيها ذلك التهذيب حتى انها لما كبرت في السن وتذكرت تلك الايام تحققت ان تلك الاسفار علمتها ان تالف ركوب الخيل وتنعم النظر في كل ما تراه وان تحب الازهار والنباتات وتعرف اسماءها ومنافعها وتقيس المسافات بعينيها وتميز علامات الفصول . ثم انها فضلاً عن ذلك حصلت على حظٍ وافر من تهذيب والدتها وكانت تقول انه لم يحسن احد تهذيبها كما احسنته امها وذلك بجعلها كل موضوع ملذاً ساراً . ولما كانت ضعيفة الجسم وصف لها الطبيب السفر بحراً فلما ادركت الثالثة والعشرين اقلعت الى كنداوا ميركا ومن هناك كتبت رسائل مطولة واصفة بتدقيق كل ماشاهدته وكانت رسائلها مفعمة بالحقائق فاشار عليها والدها بعد رجوعها ان تؤلف منها كتاباً وكان ذلك اول تآليفها سمته ,, الانكليزية في اميركا ،، فصادف استحساناً عاماً

وفي سنة ١٨٥٨ توفي والدها فاضطرت الى السكن مع والدتها في ادنبرج وهناك اخذت تهتم بتعهد الجبال وزيارة جزائر الهبريدز وقد عز عليها كثيراً الاطلاع على احوال سكان الجبال الفقراء فساعدتهم على المهاجرة واهتمت بخياطة

ملبوس لهم . ومع ان الداء كان يتناوبها في اغلب الاحيان الاّ انها لم تكن تترك التأليف فكانت تكتب وهي مطروحة على مقعدها وفي تلك الاثناء طبعت كتاباً اخر عن اميركا وارسلت مقالات كثيرة لمجلات متنوعة ولم يكن شيء اسهل عليها من الانشاء . وبعد سنين قليلة توفيت والدتها فاصيبت ابنتاها من جراء ذلك بجرح اليم . الا ان ايزابلا التمست التعزية بمدّ يد الاحسان الى اهل ادنبرج الفقراء والتخفيف من شقائهم ثم الفت كتاباً تدعو فيه اهل الجود الى اغاثة اولئك المساكين وتعيبهم على اغفالهم عن ذلك . وفي سنة ١٨٧٢ سافرت الى نيويورك فزيلاندا الجديدة فجزائر صندويج وكان من نتيجة ذلك انها تعلقت بسفر البحر وقالت انه بمثابة المعيشة في بلاد جديدة معيشة مطلقة متجددة خالية من الهمّ مجرّدة من القيود . وبعد حين الفت كتاباً في وصف جزائر صندويج فصادف رواجاً باهراً

وكان بعد ذلك انها انتقلت الى اميركا الشمالية فاصدة اكتشاف الجبال الصخرية التي كانت مجهولة في تلك الايام . جالت بين هاتيك الجبال ممتطية جوادها بين اماكن وعرة كثيرة العواصف والثلوج واضطرت الى الاقامة مدة طويلة في اكواخ سكان تلك الجبال تساعدهم في عملهم وتدرس احوال معايشهم وقد اعجبتها المناظر وافاد الهواء النقي صحتها فتقوت وكثيراً ما كانت تتردد الى تلك الجبال وتساعد القوم في التفتيش على القطعان الضالة وقد تفننت في ذلك حتى سموها « الراعي الصالح » . وبعدما صرفت مدة في تلك النواحي رجعت الى ادنبرج الى عنداختها بعد غياب سنتين واهتمت حينئذٍ بتاليف كتاب من رسائلها التي كانت قد بعثت بها اليها —

غير انها لم تعد تطيق الاقامة فزارت انكلترا وسويسرا ولم تكد تنفض عنها

غبار السفر حتى صارت نفسها تحدثها بامر سفر طويل واجبت في هذه المرة ان تزور اليابان . ومع ان شقّ عليها فراق شقيقتها الا ان صحتها كانت افضل وهي مسافرة منها وهي ماكثة

ففي سنة ١٨٧٨ وكانت قد بلغت السابعة والاربعين جعلت وجهتها بلاد اليابان عاقدة النية على ان تزور الاماكن المجهولة في الداخل فقيل لها ان المصاعب في طريقها اشدّ مما يمكنها التغلب عليها وان لا سيدة انكليزية تجرأت على ذلك بعد غير ان كل ذلك لم يكن ليثنيها عن عزمها فلما وصلت اليابان استأجرت خادماً يابانياً وجهزت لوازم السفر ولم يكن يخيفها سوى خوار عزمها الا انها ثبتت جاشها فتغلبت على مصاعب جمة وسارت في طريقها المقصود وكانت حيثما توجهت تتبعها الحشرات والبراغيث ولما كان الغرباء نادري الوجود في تلك الانحاء كان يضيق صدرها بتجمهر الناس حولها بحيث لم يتركوا لها منفرداً وكانت كلما تقربت من الداخل تزداد الشوارع قذارة والنساء انحطاطاً

على انها ما لبثت ان احست بوعثاء السفر بسبب رداءة الخيل ورداءة الطقس فصممت على السفر الى جزيرة يازو شمالي اليابان حيث يعيش بعض القبائل المتوحشة . واذ ارادت ان تدرس حقيقة اخلاق اولئك القوم صرفت ثلاثة ايام وليلتين في كوخ شيخهم وكان ذلك الكوخ مجتمع شملهم فكانت تنام في نقرة في الحائط عليها ستار من الحصير على انهم تلطفوا بها وقاموا بآداب الضيافة لها حيثما حلت اما هي فكانت تعيد اليهم صدى ذلك اللطف بمداواة مرضاهم وبعد ان درست احوالهم عادت الى توكيو عاصمة اليابان فنزلت ضيفة على السفير الانكليزي فاكرم وفادتها ووفر لها جميع اسباب الراحة غير انها ما لبثت ان ذهبت الى هونغ كونغ ثم الى كنتون فولايات الملاي ومن هناك عادت الى بلاد الانكليز

مارة بالقاهرة حيث اشتد الداء عليها والزمها الفراش وحالما تعافت قليلاً عادت الى ادنبرج واندفعت هناك تكتب ما علق في محفوظها وقد صارت كتابتها الان تفعل بالالباب فعل السلاف برقتها ومحكم نسجها واصبحت الانسة برد من الشهيرات لكنها لم تكد تفرح بشهرتها حتى رشقها الدهر باقسى سهم اصابها طول حياتها وهو موت شقيقتها

فشعرت الان لاول مرة في حياتها انها اصبحت وحيدة في العالم لا انيس لها ولا رفيق غير انه كان لها صديق هو الدكتور بيشوب الذي وقف على معالجة اختها في مرضها الاخير وكان قد طلب منها مراراً قبل ذلك الحين ان تكون شريكة حياته وكانت ترفض اما الان وقد اغتنم تلك الفرصة وهي على تلك الحال وطلب يدها فلم يكن بوسعها الرفض فرضيت على شرط ان لا يعارضها في امر السفر اذا هي رغبت فيه وهكذا اقترنا بعد موت شقيقتها وكان عمرها حينئذ خمسين سنة وهي اكبر منه بعشر سنوات —

غير ان الزمان ابو العجائب فلم تكد تمرُّ على زواجهما خمس سنوات حتى مرض زوجها مرضه الاخير وتوفي في تلك السنة . حينئذٍ شعرت بالوحدة التامة ولم يكن يخفف ما بها من لوعة الحزن سوى الاصدقاء الا انها كانت تحتاج الى من يزود عنها وهي مصعدة في الجبال جائلة في الاماكن المجهولة التي كان لها رغبة شديدة في اكتشاف معالمها . ومن الغريب انها كانت في البيت خائرة القوى ضعيفة الاعصاب ولكنها كانت ابوّة في الاسفار وقد افادها كثيراً جودة قابليتها حتى كان المرحوم زوجها يقول ان لها قابلية النمر وهضم النعامة

ولم يكن يسليها بعد ذلك سوى تاليف الكتب عن رحلاتها . وفي ذلك الحين رغبت في تعلم التمريض فصرفت ثلاثة اشهر في لندن في مستشفى

الجراحة . ولما كان المرحوم زوجها يميل الى البعثات الطبية اجمعت على تأسيس مستشفى تبشيري تذكاراً له . ومما يذكر انها لم تكن تميل في صباها الى اعمال التبشير بل كانت تكرهها مرئية ان التداخل في اعمال الناس واعتقاداتهم ليس من الحكمة في شيء بل هو خطأ ولذلك كانت في رحلاتها تتجنب بيوت المبشرين جهدها ولكن تأثير المرحوم زوجها رغّب اليها البعثات الطبية . فلما ذهبت الى كشمير اتصلت بالدكتور نيف طبيب جمعية التبشير الكنسية C.M.S. وبمساعدته هيأت كل ما يلزم لبناء المستشفى واقامته تذكاراً ليوحنا بيشوب في اسلاماباد ومما قربها الى الدكتور نيف هذا انه كان تلميذ زوجها وما كادت تنهي كل شيء حتى تركت تلك الاصقاع المضغوطة بكثرة الازدحام راكبة مدة ثمانية وعشرين يوماً مع بعض الخدم بين جبال حملايا الى ان وصلت تيت السفلى . ولما عادت الى بلاد الهند رأت امكانية القيام بما كانت قد عللت النفس به كثيراً وهو زيارة بلاد فارس ولكنها قبل سفرها ترددت على عدة مراكز تبشيرية ووضعت اساس مستشفى هنريتا برد ووكلت به احد تلاميذ زوجها

اما رحلتها الى بلاد فارس فاستغرقت السنة وكان ابتداء سفرها بين جبال موحشة لم تطأها اقدام سيدة انكليزية وقد رافقت في تلك الطريق ضابطاً انكليزياً كان جائلاً لمقاصد علمية ولكنها لقيت في سفرها هذا ما لم يكن لها طاقة على احتماله ولا قبل لها به وقد قالت فيما بعد انها لو عرفت ما ستلاقيه لما حاولت قط السفر بين اراض جبلية وعرة وطعام رديء ومأوى قذر وسكان متوحشين ومما زاد في الطين بلة ان الطقس كان عنيفاً جداً مطر غير منقطع وثلوج متكاثفة بين جبال عالية ورواسي صماء . اما الليل فكانت تصرفه في خانات باردة قذرة حيث يجتمع ثلاث مئة او اربع مئة مكاري مع دوابهم . هذا فضلاً عن الخوف

من اللصوص . وكانت حيثما توجهت يحيط بها المتفرجون المستغربون فلا يسمحون لها بالراحة وهدوء البال وكثيراً ما كانوا يسحبون شعرها ويسرقون امتعتها ويفتشون ثيابها التي كانت تخلعها في الليل وتعلقها ويجلبون لها جمهور مرضاهم لكي تعالجهم . اصابها مرة حمى واضطرت الى ملازمة الفراش ولكنها ما فتحت عينيها في الليل حتى وجدت الكوخ مملوءا بالقادمين للاستشفاء فاضطرت الى القيام بمعالجتهم بتأثر ومما زاد في المها انها لم تستطع ان تقدم لهم كل العلاجات اللازمة . وفي الصباح التالي عاد المكان فامتلاء بالمرضى فكانت تعطيهم دهوناً لجراحهم وقطرات لعيونهم وغير ذلك من الادوية التي كانت معها

ستة وار بعون يوماً صرفتها على هذه الحال الى ان وصلوا طهران العاصمة ولم تستريح سوى ثلاثة اسابيع في بيت السفير الانكليزي حتى ابتدوا برحلة اخرى اطول من تلك للاكتشاف بين الجبال فاحتملوا ما احتملوا من الصعوبات فوصلت طرابزون بعد سفر اربعة اشهر ذاقت في غضونها الاهوال اذ سطا اللصوص عليها مرة فنهبوا اكثر لوازمها فكانت تاكل طعاماً لم تالفه واحياناً تبقى بدون طعام الى ان وصلت الى حدود البحر الاسود بسلام وكانت قد قطعت في بلاد العجم مسافة ٢٥٠٠ ميلا لم تذق فيها شيئاً من الراحة سوى بعض الاحيان حينما كانت تنزل ضيفة على المبشرين وقد أثر فيها عملهم المتضمن حظاً كبيراً من تضحية النفس

من طرابزون عادت الى بلاد الانكليز وشرعت بتأليف كتاب تصف فيه اختباراتها في الاماكن التي شاهدتها وكانت تخطب في اجتماعات تبشيرية تحث فيها على الاحسان الى الفقراء وكانت اماكن الاجتماعات غاصة بالمجتمعين وممازاد اقبال الناس على سمع كلامها صوتها الرخيم واسلوب تعبيرها الذي كان يسحر الالباب ويأخذ بمجامع القلوب . القت مرة خطاباً في حالة النساء في الشرق الادنى طبع

ووزع في كل العالم ذكرت فيه شرور البلاد التي زارتها وانحطاط المرأة وقالت انها تمنت لو كان بامكانها ان تقدّم لمساعدتهم كل ماملكت يداها. اما حالتها الصحية فكانت رديئة كالعادة كلما كانت في وطنها ولذلك لم تلبث سوى ثلاث سنوات حتى ابتدأت برحلة اخرى. اشتاقت للشرق وودت ان تزور الصين واليابان فاخذت تدرس علم التصوير استعداداً لذلك لكي يمكنها اتقان الصور التي تاخذها وبعد هذا الحين كانت كل كتبها مصورة بالصور التي اخذتها هي — ذهبت اولاً الى كوريا فلم تسرّ بالمكان ولا السكان في اول الامر ولكنها عادت فصارت تحبهم وتتمتع بشمسها الدافئة وكتبت حينئذ قائلة ان سرورها حينئذ كان اعظم من كل سرور قبله. فاقامت ثلاث سنوات زارت في اثنائها مدناً كثيرة لتزداد علماً بالبلاد وسكانها

وفي سنة ١٨٩٧ رجعت الى لندن وكانت قد بلغت من العمر ستاً وستين سنة فالفت كتابين احدهما عن كوريا والثاني عن الصين على ان صحتها كانت تتوعك حالما تصل الى المدن المتمدنة فما عتمت ان ذهبت الى مراكش فسافرت في الاقسام البرية راكبة في النهار وفي الليل تأوى الى خيمة تضربها حيثما تصل وقد كانت هذه آخر سفراتها

رجعت الى وطنها واخذت تلقي الخطب وتتقن التصوير الا ان نفسها صارت تحدّثها بسفرة اخرى ولكنها مرضت في ايدنبرج ولزمت الفراش بضعة اشهر بذل اصدقاؤها في اثنائها جهدهم في تسليتها والتفريج عنها اما هي فكانت كثيرة الاهتمام بكل ما يجري حولها. لم يخامرها الخوف حينما دنت ساعتها الاخيرة بل صبرت هادئة البال قائلة انها على سفر طويل نحو الوطن السماوي

ولم تبزغ شمس السادس من اذار سنة ١٩٠٤ حتى انتقلت الى عالم البقاء

بعد ما بلغت الحادية والسبعين من عمرها

ومن اراد الوقوف على اخبار رحلاتها بالتفصيل ليرى كيف كانت تقتحم الصعوبات بملء الجرأة والثبات وكيف يتأتى للجنس اللطيف ان يدخل في معترك الحياة ويخرج منه ظافراً مكللاً باكاليل الشهرة والمجد والفخر فعليه بقراءة كتبها التي تجمع الى وفرة الحقائق رقة الاسلوب واحكام السبك وسحر البيان

القدس توفيق زيق

المرأة اقدر من الرجل

حتى في سوريا، في الشرق، حيث مقام المرأة معروف وحيث تبجح الرجل موصوف. نرى المرأة اقدر من الرجل في بعض الامور حتى في غير ما اختصتها به الطبيعة واوجبته عليها العادات. ونخص من ذلك الاعمال العمومية كالمدارس والمستشفيات وما اشبه

فالارثوذكسيون في بيروت مع وفرة ثروتهم وكثرة عديدهم وشدة تمنيهم ان يكون لهم مدرسة طائفية كبرى لم يتفقوا بعد على تحقيق هذه الامنية. بينما الارثوذكسيات انشأن مدرسة من ثلاثين عاماً لا تزل تتقدم يوماً عن يوم

والماسونيون من عدة سنوات يسعون لانشاء مستشفى للسل ويشغلون ايضاً بالمشروع ولا يزال مشروعهم للآن في مهد تأسيس المباني. بينما الدكتور ماري ادي ابنة سوريا الاميركية الاصل وحدها بالاعتماد على نفسها انشأت مستشفى لهذا الداء الوبيل وجعلت له مصيفاً ومشتى ومن ثلاثة اعوام بدأت بالتمريض فيه. والراهبة سيل اللعازرية بدأت ببناء مستشفاها للسل (قرب بكفيا) بعد الابتداء بمستشفى ظهر الباشق وانتهت قبله وفي المدينة اليوم جمعيتان نسائيتان لمساعدة المسلولين ولا جمعية رجالية غير جمعية الملجأ الصحي التدرني.

وجمعية اخوة الفقراء المارونية انشأت مأوى العجز ولم تدره اكثر من عامين ثم سلمته الى جمعية اخوات الشفقة فادارته للآن عدة اعوام

ولم يقم بيروتي من الروم الكاثوليك وبنشىء مدرسة لحسابه مجانية الا السيدة ورده فرعون ومع تكاثر ابناء المدينة لم يتفق فريق منهم على انشاء مستوصف عمومي يطبب فيه كل طبيب منهم بما تخصص له من فنون الطب وقد بلغنا ان الدكتور انسطاس بركات تسعى بهذا العمل: هذه امثلة حضرتنا الآن تبرهن ان المرأة في بعض الامور اقدر من الرجل